العنوان: تأثير الثقافة المشرقية في المغرب العربي ودور المشارقة في نشر اللغة العربية في الجزائر

المصدر: مجلة المجمع الجزائري للغة العربية - الجزائر

المؤلف الرئيسي: مرتاض، عبدالملك

المجلد/العدد: مج 1, ع 4

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2006

الشهر: ديسمبر - ذو القعدة

الصفحات: 71 - 106

رقم MD: 281395

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: AraBase

مواضيع: علماء اللغة، المشرق والمغرب، التأثيرات الثقافية، التاريخ الإسلامي، الدولة الأموية ، الأندلس، اللغة العربية، الجزائر، المغرب، انتشار اللغة العربية

رابط: http://search.mandumah.com/Record/281395

تأثير الثقافة المشرقيّة في المغرب العربيّ ودور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

أ.د . عبد الملك مرتاض

أوّلا . تأثير الثقافة المشرقيّة في المغرب العربي ودور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائرّ

لقد سبق لنا أن أثرْنا هذا الموضوع منذ زهاء عشرين عاما [1] , كما أثاره غيرُنا أيضاً غيرَ مرّةٍ فوقع الخوض فيه كثيراً وذلك لخصبه وتشعّبه وغناه؛ وهو: العَلاقةُ الثقافيّة بين المشرق العربيّ ومغربه؛ وأنّ هذه العلاقة كثيراً ما ظلّت متّسمةً بشيء من النّشاز طوراً، وبالحساسَة المفرطة طوراً آخرَ؛ وهي سيرةٌ ما أكثرَ ما تطبع العلاقاتِ بين الإِخْوَة الأشقّاء، والأقْرِباءِ الأَلِحَّاء.

1 ـ ينظر كتابنا: "الجدل الثقافي بين المشرق والمغرب"، دار الحداثة، بيروت، 1986, وهو الكتاب الذي نشر بدمشق والجزائر تحت عنوان: "الثقافة العربيّة في الجزائر بين التّأثير والتّأثّر". هذا، وقد كان اختيار عنوان بيروت من الناشر دون استئذان.

وقد كنّا أعدْنا النّشاز -الأخويّ- الذي ظلّ قائماً في تلك العلاقة، في العصور الأخيرة (أمّا في العصور القديمة فلا! فقد كان الجغرافيّون (ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان")، والمؤرّخون على اختلافهم (كتّاب التراجم مثل: ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان"، والسيوطي في "بغية الوُعَاة، في طبقات اللغويّين والنحاة": يُعْنَوْن بالمشارقة كما يُعنون بالمغاربة، حَذْوَ النعل بالنعل) إمّا لاسْتِخْذاء المغاربة وشعورهم بالنّقص إزاء المشارقة [2]... وإمّا إلى شيء من اسْتِعلاء الإخوة المشارقة وتجاهُلِهم -غالباً عن غير قصدٍ- لعبقريّة المغاربة الماثلة في كتاباتهم الفكريّة والأدبيّة والتي كثيراً ما يتغاضَون عنها، وخصوصاً في العصور الحديثة.[3] من الآيات على بعض ذلك أنّنا لا نكاد نجد في الكتب المدرسيّة المشرقيّة ذِكْراً للأدباء المغاربة المعاصرين على الرغم من نبوغ بعضهم في الكتابة وجمال

---

2 ـ ينظر أبو يعلى الزواوي، اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا، مقالة منشورة في مجلّة الشهاب، قسنطينة، الجزء الخامس، المجلد الحادي عشر، أغسطس 1935 ص. 288 وما بعدها. وقد ألقى الملامة على الجزائريّين الذين قصّروا في إبلاغ أصواتهم إلى إخوانهم المشارقة...

3 ـ من عجيب المصادفات أنّي وأنا أكتب هذه الكلمة قرأت في جريدة جزائريّة يوميّة تصريحاً للإعلامي اللبناني جورج الراسي يزعم فيه "أنّ الإعلام العربيّ، بشكل عامّ، يعاني من جهل مطبق بالمغرب العربيّ، بدليل جهْله بأسماء المدن والمسؤولين. وهو نموذج لعدم الاهتمام؛ فمعظم ما تنشره الصحف العربيّة ترجمة لبرقيات وكالة الأنباء الفرنسيّة. وما هو معروف عن المغرب العربيّ يأتي عن طريق فرنسا، أو عبر منظور فرنسيّ". (جورج الراسي، يوميّة "الجزائر نيوز"، الجزائر، في 4 نوفمبر 2004، الصفحة الأخيرة). والجهل بأسماء المدن والأشخاص، في الحقيقة، وارد، ليس إلاّ...

الأسلوب. في حين أنّ الكتب المدرسة المغاربيّة لا تزال النّصوص الأدبيّةُ المشرقيّة تطغى على مادّتها. بل ربما وجدنا بعض نقّاد المشرق المعاصرين يقصّر عن معرفة أكبر شاعر في الجزائر، أو في المغرب مثلاً، فلا يُضْني نفسه بعَناء البحث عنه... في حين أنّ المثقّفين المغاربة يعرفون عن الأدب المشرقيّ مثلما يعرف عنه المشارقة أنفسُهم، إن لم يكونوا أكثر منهم درايةً بخفاياه، وأشدّ متابعةً لمساراته، وذلك بفضل مئات الرسائل الجامعيّة التي تحضّر عن الشخصيّات الثقافيّة والأدبيّة المشرقيّة... ثمّ بفضل الْتِهَام الكتب التي تُقذَفُ إليهم من بيروت والقاهرة، وبدرجة أقلّ من العواصم المشرقيّة الأخرى... ولكنْ أَرُونَا كم هو عدد الأطروحات الجامعيّة التي حُضّرت عن أدباء بلاد المغرب، في الجامعات المشرقيّة؟!...

غير أنّ هذا النشاز لم يكن يطبع العلاقة الثقافيّة المشرقيّة المغربيّة في العهود القديمة التي كانت تتميّز برحلة المغاربة إلى المشارقة، وقد زاد من عدد هذه الرحلات إلى المشرق رغبةُ المثقفين المغاربة في أداء فريضة الحج... فكان الطريق إلى مكة يعني رحلة علميّة خصبة يتّصل فيها العالِمُ الحاجّ بمعظم العلماء في مصر ودمشق وبغداد والمدينة المنوّرة فيأخذ عنهم إلى درجة الإجازة... كما تميّزت برحلة بعض العلماء والمغنّين المشارقة إلى الأندلس واستقرارهم بها مثل اللّغويّ أبي عليّ القالي، والمغنّي زرياب... ويضاف إلى ذلك، البعثةُ الدّينيّة المتكوّنة من عشرة فقهاء، والتي أرسلها عمر بن العزيز إلى إفريقية

الشماليّة ليعلّموا النّاس أمور دينهم.[4] ويبدو أنّ كثيراً من هؤلاء الفقهاء لم يقِف نشاطُهم لدى التّدريس الرسميّ في المساجد والكتاتيب؛ بل إننا نفترض أنهم انبَثّوا (ونحن نصطنع عبارة "نفترض" لقلّة المعلومات التاريخيّة التي يمكن الاِستنامة إليها) في أصقاع من شمال إفريقيا؛ وقد طابَ لبعضهم المقامُ فأقام، وتزوّج، ولم يؤُبْ إلى المشرق قطّ. وعلينا أن نفترض، تارة أخرى، خصب تأثير هؤلاء الذي وفدوا من المشرق على إخوانهم المغاربة وكلُّهم فيْضٌ من العلم، بالإضافة إلى قيمة باعثهم وهو الخليفة عمر بن العزيز.

وقد كان فقهاء آخرون نزحوا إلى المغرب الأدنى (تونس) قبل هؤلاء، وأقاموا بالقيروان خصوصا. ويضاف إلى هؤلاء، أولئك الذين كانوا جاءوا مع القادة الفاتحين الذين كان الأُمَويّون يعيِّنونهم. وناهيك ببعض هؤلاء عقبة بن نافع، ابن أخت عمرو بن العاص، الذي كان عُيِّن أميراً على حملة لفتح بلاد المغرب، ثمّ وُشِيَ به فأُعيد إلى المشرق. ولم يبرح الحنينُ العارم يراوده ويعاوده حتّى فاتَح معاوية بن أبي سفيان في بعض ذلك فعيّنه، للمرّة الثانية، في حملة استطاع من خلالها أن يعيد فتح الجهة الغربيّة لأقطار المغرب العربيّ، حاليا، ولكنّه استشهد ودُفن بالجزائر... فكلّ هذه الأحداث والرجالات والثقافات أثّرتْ حتماً تأثيراً عميقاً في مسار الثقافة المغاربيّة...

4 ـ ينظر أبو بكر عبد اللّه بن محمد المالكيّ، رياض النفوس، في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم ونُسّاكهم وسيَر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، 1. 64–92, تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

غير أن ذلك كلّه لا يمثّل القاعدة، بل يمثّل، في الحقيقة، الاستثناء. ولعلّ الذي زهّد المشارقة في الرحلة إلى بلاد المغرب، ما كان المغاربة لا يزالون ينهضون به من رحلات سنويّة، بانتظام، من أجل أداء فريضة الحجّ إلى بيت اللّه الحرام، كما سبقت الإشارة إلى بعض ذلك...

ويبدو أنّ المشارقة كانوا يُفيدون عن أحوال المغرب من خلال رحلات أولئك العلماء إليهم؛ فنجد أبا عثمان الجاحظ، مثلاً، يذكر مدينة تاهَرْتَ الجزائريّةِ في إحدى رسائله فأعدْنا ذلك إلى أنّه ربما أخبره عن أحوالها الشاعر بكر بن حمّاد الذي أقام بالمدن العراقيّة زمنا طويلاً، [5] كما سنرى.

والحقّ أن العَلاقة الثقافيّة بين المشرق والمغرب ظلّتْ قائمة على التفاعل والتّخاصُب والإفادة المتبادلة إلى أن أصيبت الأمّة العربيّة بالانحطاط في عصورها الأخيرة فانزوى كلّ طرَف على نفسه، وعوض التعاون في خدمة الثقافة العربيّة التي هي ثقافة واحدة ألفينا الاختلال يدبّ إلى هذه خلال الثلاثةِ الأرباعِ الأولى من القرن العشرين خصوصاً، ثمّ بدأ هذا الاختلال يتناقص قليلاً، قليلاً، إلى أن زال الآن بفضل انتشار التعليم الجامعي، ودور النشر، والدّوريات والصحف السيارة في بلاد المغرب... ثم بفضل الندوات الثقافيّة المنعقدة في

5 ـ ينظر أبو عثمان الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، في رسائل الجاحظ، 4. 128 تحقيق عبد السلام هارون، نشر الخانجي، القاهرة، 1979.

المشرق والمغرب، والتي يُدعى إليها من هنا ومن هناك المثقّفون المشارقة والمغاربة معاً ليتحاوروا في صعيد واحد... وليس أدلّ على ذلك ممّا نحن فيه، هنا والآن، بالكويت...

مظاهر من تأثّر المغاربة بالمشارقة

لقد شاء اللّه، بعد أن جاء بالإسلام، أن يمتدّ الفتح الإسلاميّ، والوجود العربيّ (اللّغويّ الثقافيّ) إلى بلاد المغرب، ومنها إلى بلاد الأندلس، الفردوس المفقود؛ فانتقلت الثقافة العربيّة المشرقيّة بكلّ قِيمها الرّوحيّة والمادّيّة والجماليّة أيضاً إلى هناك، فصقلت الشخصيّة الثقافيّة المغربيّة، (أو المغاربيّة كما يحلو للمثقفين المعاصرين في المغرب العربيّ أن يعبّروا اليوم) بكلّ تلك الخصائص الإنسانيّة الرّفيعة. ولقد كان للقرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشريف الأثرُ الأوّل في إغراء المغاربة بتعلّم اللّغةِ العربيّة أوّلاً، ثمّ الشروع في تعليمها للنّاشئة في المساجد والزّوايا والكتاتيب القرآنيّة (6) آخرًا . فظلّ المشرقُ العربيّ الْمُتنَفَّسَ الذي يتنفّس منه المغاربة، والنور الذي يستضيئون به، طوال القرونِ الأربعةَ عشرَ من العَلاقات الأخويّة والثقافيّة؛ فقد كتب الشيخ

6 ـ يطلق على "الكُتّاب" في المغرب الأقصى وبعض المناطق من الجزائر "المسيد" (ويُنطق "الَمْسِيد")، في حين يُطلق عليه في مناطق أخرى من الجزائر: "الْخَرْبِيش"، ويكون حجرة ملحقة بالمسجد المخصّص لإقامة الصلوات).

محمد البشير الإبراهيمي، صديق الأستاذ عبد العزيز الرشيد، مقالة عام واحدٍ وخمسين وتسعمائة وألْفٍ بعنوان: "من نفحات الشرق"[7] عبّر فيها عن استلهام المغاربة للمشارقة، وعن شديد إعجابهم بهم، وانتظار الخير أن يأتِيَ منهم فيقع لهم الصّلاح المفقود، والنّفع المنشود... ويدلّ عنوان هذه المقالة على أنّ المغاربة كانوا ينظرون إلى المشرق العربيّ نظرة تتّسم بالتّقدير العظيم، والإعجاب الكبير... والآية على ذلك ما جاء في صدر هذه المقالة: "دَاوِ الْكُلُومَ يا شرقُ! فما زلْنا كلّما استشفَيْنا بك نجد الراحة والعافية، ونظفَر بالأدوية الشّافيَة؛ وما زلنا كلّما استنشَقْنا ريحاً استنشَيْنا رَنْدَكَ وعَرَارَك، ومَرْخَكَ وعَفَارَك؛ وما زالَتْ أفئِدتُنا تَهْوِي إليك فتصافحها حرارةُ الإيمان، وبَرْدُ اليقين، ورَوْح الأمان؛ وما زلتَ تُتْحفنا مع كلّ بازغةٍ منك بالنُّور اللائّح، والشُّعاع الهادي؛ وما زال يتبلّجُ علينا من سَناكَ، في كلّ داجيةٍ فجرٌ؛ وتَسْري إلينا من صَبَاكَ، في كلّ غمّاءَ نفحاتٌ منعِشة" [8].

فهذا النّصّ الأدبيّ الجميل المثقل بالشعور الكريم، والشعريّة الطّافحة، هو باقةٌ ضائِعةٌ تُقدَّم إلى الشرق العربيّ من تِلقاءِ غرْبه، ونسائمُ عطرةٌ يَزْدَجِيهَا كاتب جزائريّ مُوقَرٌ بالعواطف الجائشة، والمشاعر الصادقة، إلى حيثُ مهدُ العروبةِ، ومعدن الفصاحة، ومبعثُ الأنبياء...

7 ـ محمد البشير الإبراهيمي، جريدة البصائر (السلسلة الثانية)، ع. 164, سنة 1951.

8 ـ محمد البشير الإبراهيمي، البصائر، ع. 164, وانظر أيضا آثار الإبراهيمي، 2. 551.

وإنّه لا شيءَ كان أدعى إلى الفخر مِن أن يلُوكَ المغاربة ألسنتَهم بمحفوظ الشعر المشرقيّ قديمِه وحديثه، والتنافُس في معرفة رجاله، والتبارِي في محاكاة شخصيّاته الأدبيّة والتّأثّر بأقلامها، والإعجاب بآرائها قبل التفكير في انتقادها؛ ذلك بأنّ الشعراء كانوا -ولا يزالون- في المشرق أكثر،[9] كما كان علماءُ الفقه والنّحو والأصول والبلاغة والنقد والفيزياء والكيمياء والرياضيات في المشرق أيضاً أسبق إلى تأسيس الثقافة العربيّة والتنظير لها. وناهيك بأنّ النحو العربيّ كلّه ينحصر في مرحلة التّأسيس في عاصمتيه الاِثنتين: البصرةِ والكوفة... ولم تتفتّق جهود المدرسة النحويّة المغربيّة إلاّ بعد قرون من بعد ذلك، كما سنرى... كما أنّ المغاربة -ومعهم كان الأندلسيّون- يتمَذْهَبون بمذهب الإمام مالك بن أنَس في الفقه الذي جاء إليهم من المدينة المنوّرة، وهذا تأثير آخر جاءهم عن طريق الْحُجّاج الذين كانوا يشرّقون قبل أن يعودوا إلى ربوعهم...

9 ـ حضرت إحدى الندوات الشعريّة في المشرق فزعمت لبعض شعراء المغرب العربيّ الذين حاضرين أنّ الشعر في المشرق أنضر وأرقى، فزعم لي أحدهم من تونس أنّ ذلك ليس صحيحاً، وكلّ ما في الأمر أنّ الإعلام في المغرب العربيّ ضعيف، ولا يعرف كيف يلمّع الشّخصيّات الأدبيّة! ونحن باقون على موقفنا في الوقت الراهن حيث الشعراء في المشرق أكثر عدداً، وأرفع مستوىً من حيث الشعريّة مقابل بروز عدد كبير من النّقّاد الحداثيّين المتألّقين في بلاد المغرب لقرب المغرب العربيّ من أوربا (نصف ساعة بالطّائرة بين الجزائر وإسبانيا، ودقائق بالطائرة بين المغرب وهذا البلد الأوربيّ...).

وفي حين كان الشعراء يملؤون الأرض في بلاد المشرق، سواء على عهد الدولة الأموية، أو على العهد الأوّل لدولة بني العباس، (وذلك بحكم أنّ انطلاق الحركة الشعريّة الأولى تعود في الجزيرة إلى قرون قبل أن يجيء اللّه بالإسلام...) [10] لم يظهر أوّل شاعر من المغرب العربيّ، في حدود ما بلغناه من الاطّلاع، وهو بكر بن حمّاد التّاهرتي (200-296)، إلاّ في النصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة، ولم تتفتّق موهبته الشعريّة، في الحقيقة، وتَصْفُ قريحتُه، إلاّ حين هاجر إلى بغداد سنة 217 للهجرة حيث احتكّ بأكبر شعراء القرن الثالث للهجرة في بغداد أمثال أبي تمام الطّائي الذي كان صديقاً شخصيّاً له، وأبي نواس، وأبي العتاهية. ولكنّ بكر بن حمّاد بمقدار ما كان صديقاً لهؤلاء الثلاثة كان خصماً لدوداً لدِعبل الخزاعي الذي كان لا يرعوي في هَجْوِ الخلفاء العبّاسيّين، ومنهم المعتصم... [11] من حيث كان ينظر الشاعر الجزائريّ إلى أولئك الخلفاء نظرة تقدير وإكبار فكان يسوءُه فعْلُ دعبل...

وأمام التّأثير الثقافيّ المشرقيّ وغزارته وخصبه لم يكن بوسع المغاربة والأندلسيّين جميعاً إلاّ أن يؤلّفوا، إذا ألّفوا، في بداية أمرهم، كتبهم على غرار كتب المشارقة مُحاكِينَهم في مناهجهم، مقلّدينهم في

10 ـ ينظر الجاحظ مثلا، الحيوان، 6. 277 (تحقيق عبد السلام هارون) حيث ذكر أبو عثمان: "قد قيل من الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطولَ ممّا بيننا اليوم وبين أوّل الإسلام".

11 ـ ينظر عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائريّ القديم (دراسة في الجذور)، نشر دار هومه، الجزائر، 2000.

موضوعاتهم؛ وذلك لغلبة تأثيرهم فيهم، قبل أن يبلغوا مرحلة النّضج الفكريّ فيُبدعوا ويبتكروا، ويتفرّدوا بشخصيّتهم الثقافيّة المغربيّة الصّميمة. وممّن بدا التّأثير المشرقيُّ في كتبهم بارزاً أبو عليّ الحسن بن رشيق الْمَسَلِيّ (نسبةً إلى الْمَسيلة) الميلادِ، القيروانيٍّ الدار، المتوفًّى عام 456 للهجرة في كتابه "العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، وأبو إسحاق إبراهيم الْحُصْريّ المتوفًّى عام 453 للهجرة في كتابه "زهر الآداب، وثمر الألباب". في حين كان أحمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفّى عام 326 للهجرة ألّف كتاباً ضخماً جمع فيه نصوصاً أدبيّة مشرقيّة كثيرة على غرار كتابي "الحيوان"، و"البيان والتبيين" للجاحظ، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة، فعلّق على ذلك الصاحب بن عبّاد بكلمته الشّهيرة حين اطّلع عليه: "هذه بضاعتنا ردّت إلينا"! فقد كان الصاحب يريد أن يقرأ أدباً مغاربيّاً لا يعرفه، ويمثّل شخصيّة المغاربيّين والأندلسيّين، لا ما جمع ابن عبد ربّه من نصوص المشارقة المعروفة. ولكنّ ذلك كان أمراً عسير التحقيق في بداية القرن الرابع للهجرة؛ وكان لا بدّ من الانتظار زمناً بعد ذلك لينطلق المغاربة إلى إبداع ثقافة تطبع شخصيّتهم، وتعبّر عن خصوصيّتهم في إطار الثقافة العربيّة العامّة. ذلك بأنّ هذه الكتب الثلاثة لم تذكر من نصوص أدب المغاربة إلاّ قليلاً، بل كان وهْمُ أصحابها منصرفاً إلى محاكاة "الحيوان" و"البيان والتبيين" و"عيون الأخبار" وغيرها، مما يشبهها...

ولم يشفع لابن عبد ربّه دقّة منهجه في تقسيم مادّة كتابه وتميّزه في ذلك عن أبي عثمان الجاحظ الذي كان يجنح، متعمّداً، للفوضى في تدبير مادّة كتبه...

وأمّا أبو الحسن علي بن بسّام المتوفّى عام 542 للهجرة فقد ألّف كتابه "الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة" على غرار كتاب "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر" لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبيّ، كما لاحظ ذلك طه حسين في كتابة مقدمة كتاب الذخيرة حين قال: "دفع صاحبَه إلى تأليفه أمران: أحدُهما حبّه لوطنه الأندلس وحرصه على أن يُثبت لها تفوّقها في الأدب والعلم، وأن يثبت هذا التّفوّق لمعاصريه خاصّة لكثرة ما رأى من افتنان النّاس من أهل أُفُقِه بالشرق وأدبائه وعلمائه وإعراضهم عن الأندلس وما أنتجت من أدب وعلم. والثاني حرْصُه على تقليد الثعالبيّ في كتاب اليتيمة الذي صوّر فيه أدب معاصريه من الشعراء والكتّاب" (12).

وكانت ملاحظات طه حسين وجيهةً لأنّ محاكاة ابن بسّام للثعالبي تبدو واضحةً من عنوان الكتاب نفسِه الذي يتناصُّ فيه الآخِرُ مع الأوّل:

1 ـ في صياغة العنوان: الأول: "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر"، والآخر: "الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة"؛ إذ نجد كلاًّ منهما يقيم عنوان كتابه على جملتين مسجوعتين، مع اصطناع الراء آخِرَةً في اللّفظ...

12 ـ طه حسين، مقدّمة كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسّام، 1. صفحة أ.

2 ـ في تناصٍّ ابن بسّام مع الثعالبي: الأوّل "في محاسن أهل العصر"، والآخر "في محاسن أهل الجزيرة".

3 ـ في مضمون الكتاب نفسِه حيث الأوّلُ يتناول أدباء عصره وشعراءَهم في أقاليم معيّنة من بلاد المشرق دون غيرها، في حين لا يأتي الثاني -ابن بسّام- إلاّ ذلك حين يَقصِر كتابه على متابعة الشعراء الأندلسيّين دون غيرهم.

4 ـ في أسلوب تقديم الشخصيّات: اللّغة الأنيقة نسْجاً، والأسلوب المسجوع تعبيراً، وذلك على الرغم من رقّة الأسجاع الأندلسيّة وأدناها إلى الشعريّة من أسجاع الثعالبي المتّسمة بالفخامة والمبالغة دون الشعريّة...

ذلك، وقد وَكَّدَ المحقّق محمد محي الدين عبد الحميد ما كان ذكر طه حسين منذ سنة 1939 في مقدّمة كتاب "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر".[13]

ونستخلص من بعض نصّ طه حسين أنّ الأندلسيّين كانوا منصرفين بإعجابهم الشديد إلى المثقّفين المشارقة، ممّا حزّ في نفْس ابن بسّام القرطبيّ فحَمَله على أن يؤلّفَ ما يؤلّفُ لإثبات الذات، ويُظهر للمشارقة بعض ما لدى المغاربة، وكأنّه كان يريد أن يُنْشد مع الشاعر العربيّ القديم، حجَل بنُ نَضْلةَ الباهليّ:

13 ـ ينظر محمد محي الدين عبد الحميد، كتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، 1. 13 ـ 14.

جاء شَقيقٌ عارضاً رُمْحَه إنّ بني عمِّك فيهمْ رِماحْ![14]

أراد ابن بسّام، إذن، أن يثبت للمشارقة فضل المغاربة، من أهل الأندلس، فألّف كتابه الجميل. ولولا هذا الكتاب لضاع، في الحقيقة، من نصوص الأدب الأندلسيّ شعريّهِ ونثريِّهِ شيء كثير.

مظاهر من تفوّق المغاربة بعد مرحلة التأثّر الأولى بالمشارقة

والحقّ أنّ العلماء المغاربة حاولوا التّفوّق في بعض المجالات التي قصّر فيها المشارقة، بعد مرحلة الاستيعاب والإعجاب معاً، ومن ذلك تفرُّدهم بتأسيس مدرسة نحويّة ولغويّة لعلّ أهمَّ رجالاتها أبو الحسن عليّ بن أحمد بن سيده المتوفّى عام 458 للهجرة الذي يقول فيه –مع الأزهري– محمّد بن مكرّم بن منظور صاحب معجم "لسان العرب": "ولم أجِد في كتب اللّغة أجمل من تهذيب اللّغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن عليّ بن إسماعيل[15] بن سيده الأندلسيّ، رحمهما اللّه. وهما من أمهات كتب اللّغة على التحقيق، وما عداهما، بالنسبة إليهما، ثنِيّات الطّريق"،[16] فجعل ابن منظور ابن سيده في طبقة الأزهريّ. ومنهم علي بن محمد بن

14 ـ وشَقيق الذي ذكر الشاعر في هذا البيت، هو شقيق بن جَزْء بن رباح الباهليّ.

15 ـ نلاحظ أنّ السيوطي ذكر أنّ أباه أحمد، في حين أنّ ابن منظور ذكر أنّ أباه إسماعيل، بل من النّاس من يذهب إلى أنّ أباه محمد. ينظر السيوطي، م.م.س.، 2. 143.

16 ـ ابن منظور، مقدمة لسان العرب.

عليّ بن محمد نظام الدين أبو الحسن المعروف بابن خروف المتوفّى عام 609 ، [17] وعمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الإشبيليّ المعروف بالشَّلَوْبِين المتوفّى عام 645 ، وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن حُرَيْث بن مَضَاء الذي خالف النحاة في كثير من المسائل، واتّهمهم بالحشْو الذي أفضى إلى إتخام النحو العربيّ بقواعدَ قد لا يحتاج إليها المستعمِل، وتوقّف، خصوصاً، لدى مسألة العامل وحاول أن يُبطلها جملةً وتفصيلاً، وعدّها من تكلّف النحاة وتمحّلاتهم، وذلك في كتابه "الرّدّ على النحاة". [18] وقد خالفه في ذلك نحويّ أندلسيّ آخرُ وهو ابن خروف على سبيل المناقضة في كتابٍ عنوانُه: "تَنْزيه أئمّة النّحو، عمّا نُسِبَ إليهم من الخطأ والسَّهو" [19]. ولَمّا بلغ ابنَ مَضَاء ذلك قال: "نحن لا نبالي بالكِباش النّطّاحة، وتعارِضنا أبناءُ الخرفان"! [20] وحُقّ لِمَنْ يُنزّه النّحاة عن الخطأ أن يقالَ فيه بعضُ ذلك!...

17 ـ ينظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة، في طبقات اللّغويّين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، نشر عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1384-1965.

18 ـ حقّق هذا الكتاب شوقي ضيف، ونشرتْه دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1947. هذا وقد ذكر عنوان هذا الكتاب السيوطي تحت عبارة: "الرّدّ على النحويين"، ينظر السيوطي، م.م.س.، 1. 323. وينظر أيضاً عبد الكريم بكري، ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1402-1982.

19 ـ نلاحظ أن ابن خروف يصطنع لغة تقديسيّة حين ينزّه النحاة عن الخطأ ويدّعي عصمتهم من السّهو، وهو موقف غير مقبول في العلم الذي يقوم على تلاقح الأفكار وتعارضها، لا على الواحديّة والتنزيه.

20 ـ السيوطي، م.م.س.

ومنهم أيضاً يحيى بن مُعْطٍ بن عبد النور أبو الحسن زين الدين الزّواوي المتوفّى عام 628. وألفيّة ابن مُعْطٍ هي أوّل منظومة مؤلّفة من ألف بيتٍ في النحو العربيّ نسج عليها ابن مالك فيما بعد، وهو مغربيّ آخر استقرّ بدمشق وتوفي بها.

وكان ابن معطٍ آيةً في حفظ اللّغة العربيّة حتّى إنّ كتب التراجم تذكر أنّه كان يحفظ معجم الصحاح للجوهري عن ظهر قلب، وقد نظم كثيراً من الكتب لتيسير التّعلّم على النّاس. وناهيك أنّ محمد بن مالك يُثني عليه بعد أن زعم أنّ ألفيّته تفوق ألفيّة ابن مُعطٍ حين يستدرك في مقدّمة ألْفيّته قائلاً:

وهْو بِسَبْقٍ حائزٌ تفضيلاَ   مُستوجِبٌ ثنائيَ الجميلاَ[21]

ومنهم أبو عبد اللّه جمال الدين محمد بن عبد اللّه بن مالك المولود بالأندلس عام 600 والمتوفّى بدمشق عام 672 صاحب الألفيّة

---

21 ـ كانت ظاهرة نظم الحقول المعرفيّة أمراً جارياً، وتقليداً تعليمياً قائماً، في بلاد الأندلس؛ فمن أشهر ذلك خارج المنظومات النحويّة والفقهيّة أرجوزة الأديب أبي طالبٍ عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن عبد الله (وينتهي في نسبه الأعلى إلى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأمويّة بالأندلس) (ينظر أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال، كتاب الصلة، في تاريخ أئمّة الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم، نشره السيد عزّت العطار الحسيني، القاهرة؟ 1374–1955) أطلق عليها: "عيون الإمامة، ونواظر السياسة" . وتوفي سنة 516 للهجرة) وأبو طالب من أهل جزيرة شُقْر. وكان يلقّب بالمتنبّي، فيما يذكر ابن بسام (الذخيرة، 2. 401). وقد أثبت ابن بسام نصّ هذه الأرجوزة العجيبة في ذخيرته: 2. 401–431. وقد حاولت أن أعُدّ أبيات هذه الأرجوزة العجيبة فألفيتها تبلغ ثلاثة وخمسين بيتاً وأربعمائة.

الثانية في النحو، وصاحب المؤلّفات النحويّة واللّغويّة الكثيرة، وهو الذي لم يذهب إلى المشرق إلاّ بعد أن كان جلس في النحو لأبي علي الشَّلَوْبين في إشبيلية. وهو أحد أكبر عمالقة النحو العربيّ إطلاقاً، وربما كان ابن مالك أنحى من كلّ النّحاة بعد سيبويه. ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن داود الصنهاجيّ بن آجرّوم (672–723) صاحب متن الآجروميّة الشهير، الذي وُلد في العام الذي تُوفّي فيه ابن مالك فقيل من بعدُ: توفّي نحويّ، وولد نحويّ آخر!... وهو متن نحويّ مركّز وضعه في أهمّ قواعد النحو العربيّ تعلّمتْ منه أجيال متعاقبة طوال القرون الأخيرة في بلاد المغرب كلّها. والآجرومية هي أوّل كتاب يطبع باللّغة العربيّة في إيطاليا[22]؛ وقد شرحه عالم نحويّ آخر كبير هو أحمد بن عليّ ابن منصور البجائيّ (نسبة إلى بجاية) الذي انتقل إلى المشرق فكان يدرّس بالقاهرة، وتوفّى سنة 837 للهجرة...[23] فهؤلاء يشكّلون مدرسة نحويّة كبيرة في اللّغة العربيّة. وكلّ منهم خدم العربيّة على نحو أو على آخر خدمة جُلّى، مع تفاوت بينهم في القيمة المعرفيّة، ودرجة التّأثير.

ونستخلص من ذلك أنّ تأثير النّحاة المشارقة في المغاربة في المرحلة الأولى لم يظلّ تأثيراً عقيماً، بل بعد مرحلة التّأثّر والاستيعاب،

22 ـ توجد نسخة من هذه الطّبعة في مكتبة الملك فهد بالرياض.

23 ـ لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، وقد حققته الأستاذة بوعناني ونالت به درجة جامعيّة من جامعة وهران.

انتقل النحاة المغاربيّون إلى مرحلة التنظير والإبداع. والحقّ أنّ عدد النّحاة في بلاد المغرب كثير، ولكنّا اجتزأنا بأشهرهم وأكثرهم تأثيراً.

ولو انصرف الذهن إلى الفقه الذي أخذه المغاربة عن موطّأ مالك بن أنس المتوفّى سنة 179 للهجرة (وهو من تابعي التابعين) لألفيناهم، بعد أن هضموا مسائلها التي اتّخذتْ سبيلاً وسطاً بين التساهل والتشديد، ينبرون إلى تلخيصها بشكل تعليميّ برّز فيه المغاربة والأندلسيون وهو نظْم الكتب الفقهيّة والنحويّة والمنطقيّة والْمُعجميّة وغيرها في منظومات تختصر مطوّلاتها، وتقيّد مُطْلَقاتها... ولكن قبل ذلك كان المفكّر العالميّ الفقيه الفيلسوف الطّبيب محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن رشد القرطبيّ (520-595) ابتدع ضرباً من الكتابة الفقهيّة في كتابه "بداية المجتهد، ونهاية المقتصد"، لم يُسبق إليها. وتقوم منهجيّته فيه على عرْض المسألة الفقهيّة كما وردت في أصل مذهب الإمام مالك، ثمّ لا يزال يتابعها لدى أئمّة المذاهب الأخرى وكبار فقهائها، مع تبيان المستندات التي استندوا إليها في إقامة مذاهبهم من الحديث خصوصاً وذلك كلّه من أجل نبْذ التقليد، والدّعوة إلى الاجتهاد الواعي... لأنّ الفقهاء كادوا ينسَون الأصول فظلّوا يذكرون آراء الفقهاء المتأخّرين، دون الرجوع إلى أصول الشريعة الإسلاميّة (القرآن والحديث). وكانت الغايةُ من تأليف كتاب ابن رشد تِبيانَ أسرار الاختلاف بين أئمّة المذاهب الأربعة القائم على الاختلاف في تأويل الأحاديث النبويّة وسيرة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم. وقد أظهر فيه من سَعة الاطّلاع،

ومن التبحّر في الفهم والمقارنة بين المذاهب والنّصوص ما لم يأْتِهِ إلاّهُ. وهو ضرْبٌ من الإبداع الفقهيّ جديد عجيب.(24)

ولم يجتزئ ابن رشد بذلك حتّى نظم متناً فقهيّاً أطلق عليه "مقدّمة" على مذهب الإمام مالك شرحها محمد بن إبراهيم التّتائيّ.

ومن الفقهاء الذين كان لعملهم تأثير كبير، وقد حذا في سيرته التعليميّة حذو ابن رشد، أبو محمد عبد الواحد ابن أحمد بن عليّ بن عاشر الفاسيّ الدّار، الأندلسيّ الأصل، المالكيّ المذهب، المتوفى عام 1040 للهجرة حين نظم أهمّ قواعد الفقه في أربعة عشر بيتاً وثلاثمائة بعنوان: "المرشد المعين، في الضروريّ من علوم الدّين".(25) في حين نجد أبا محمد عليّ بن أحمد بن حزم الظاهريّ المولود في قرطبة سنة 384 للهجرة والمتوفّى سنة 548 نجده يبدع في كتابة كتابه: "الفِصَل، في الملل والأهواء والنّحل" (26)، وهو أوّل كتاب في تاريخ الأديان المقارنة.

24 ـ طبع الكتاب أوّل مرّة بالقاهرة، ثمّ طبع ببيروت، نشر دار ابن حزم، 1999.

25 ـ شرح هذا المتن الفقهيّ العجيب الذي كان جميع المتعلمين في المغرب والجزائر يحفظونه كما يحفظون متن آجرومية ابن آجروم، ومتن ألفيّة ابن مالك... محمد بن أحمد ابن ميّارَة المالكيّ بعنوان: "الدرّ الثمين، والمورد المَعين". وهو متداوَل بكثرة بين الفقهاء.

26 ـ ذكر ابن خلدون هذا الكتاب تحت عنوان مختصر هو "الملل والنحل"، وذكره المشرف على النّصّ تحت عنوان: "الفِصَل، في الملل والنِّحل"، ينظر ابن خلدون، المقدمة، ص. 357. وربما ذكر الأجانب الشّديدو الإعجاب بابن حزم كتابه تحت عنوان: "الفِصَل"، ينظر:

Encyclopedia universalis, T. 7, .732-734.

وعلى الرغم من أنّ ابن حزم خالف الجماعة حين أنكر القياس في الفقه مع مجموعة من العلماء فإنّه ترك آثاراً على الاجتهاد في الفقه بالذهاب إلى تأويل النّصّ الشرعيّ على ظاهره. ويزعم ابن خلدون أنّ مذهب الظّاهريّة درَس على عهده، وأنّ كتب ابن حزم كان يُحظر بيعُها في الأسواق[27]. ونحن الذي يعنينا هنا أنّ الفقه المالكيّ الذي اقتصر في بداية أمره بالأندلس والمغرب على العبادات، انتقل إلى المستوى اللاّهوتيّ "التيولوجيا"، فانتقل الناس من مجرّد الحفظ والفهم، إلى مستوى الإبداع والنّقد، والخوض في ماهيات الأديان، وفضْح الإسرائيليّات كما في "الفِصل"... وببعض ذلك يتبيّن أنّ المدرسة الفقهيّة ببلاد المغرب ابتدأت بالتقليد والتحصيل، ثم الفهم والاستيعاب، ثم الانتقال إلى الإبداع على غرار تفسير القرآن للقرطبي، كتابات ابن رشد في تأصيل الفقه (بداية المجتهد، ونهاية المقتصد)، وابن حزم على طريقته في فهم النّصوص على ظاهرها (الفِصَل، في الملل والأهواء والنحل).

ونختم هذه العجالة التي تتناول العلاقة الثقافيّة بين المُشرق والمغرب، بما أبدعه عالمان مغربيّان كبيران: أحدهما عبد الرحمن بن خلدون في مقدّمته العجيبة التي كتبها بضواحي تاهرت بالجزائر. فهي أوّل عمل في التاريخ البشريّ يتناول نظريّة العمران، أو فلسفة الاجتماع،

27ـ ينظر ابن خلدون، المقدّمة، ص. 801.

فكان فكراً متفرّداً في التّاريخ وثب به إلى العالَميّة والخلود. ولكن من السذاجة أن يعتقد معتقد أنّ ابن خلدون بنَى نظريّة العمران وفلسفة التاريخ على عدم، وانطلق فيها من فراغ ثقافيّ جدْب، بل إنّا نعتقد أنّ الكتابات التاريخيّة السابقة في المشرق العربيّ انطلاقاً من ابن إسحاق، وابن سعد الزهريّ في "كتاب الطبقات الكبير" إلى المسعودي (مروج الذهب، ومعادن الجوهر)، إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ في كتابه "تاريخ الأمم والملوك"، إلى أبي الفدا إسماعيل بن كثير في كتابه: "البداية والنهاية"... قد تكون هي التي ألهمتْه -بالإضافة إلى تجاربه ومشاهداته وتأمّلاته- بأن يبنيَ على أنقاضها، وقد نقَد كثيراً منها، ما بنى.

وأمّا العالم الآخر فهو أبو الحسن حازم القرطاجنّي المتوفّى بتونس سنة 684 للهجرة الذي أبدع في النقد الأدبيّ في كتابه: "منهاج البلغاء، وسراج الأدباء"؛ وذلك بعد أن كان تشبّع بكل النظريّات والأفكار والآراء التي بذلها النقاد والبلاغيّون المشارقة انطلاقاً من مقدّمة ابن قتيبة في كتابه: "الشعر والشعراء"، إلى عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، إلى علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه: "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، إلى قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر"، إلى ابن الأثير في كتابه "المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر"، وربما تأسيساً على بعض جهود ابن رشيق في العمدة أيضاً...

وكذلك ابتدأت الثقافة المغربيّة تلميذةً للثقافة المشرقيّة تُقلّدها طوراً، وتحاكيها طوراً آخر؛ ثم بلغت مرحلة الاستيعاب والتّفهم، وبعدها انطلق المغاربة إلى إبداع حقيقيّ أثرى الثقافة العربيّة فأضاف إليها في الفلسفة والطّب والفقه والنحو والمعجميّة والنقد والتاريخ وفلسفة الاجتماع.

دور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

إنّنا نفترض، في غياب الكتابات التاريخيّة الدقيقة عن هذه المسألة أنّ اللّغة العربيّة في الجزائر ابتدأتْ في الاِنتشار والشيوع بين السكّان انطلاقاً من أواخر النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة على الأقلّ؛ وذلك حين وقع تأسيس الدولة الرستميّة التي آثرت لغة الدين الإسلاميّ، والقرءان: لساناً لها لاتّفاق الجزائريّين يومئذ عليها، على أساس أنها الأداة المعرفيّة التي تمكّنهم من الإلمام بالشريعة الإسلاميّة وأصولها بوجه مباشر، بالإضافة إلى أنّ العربيّة كانت اللّغة الأولى في العالم، بالإضافة إلى أنّها كانت تتيح لهم الإفادة من الثقافة العربيّة المشرقيّة الرفيعة التي كانت في أزهى عصورها، بالإضافة، أيضاً، إلى أنّها تتيح للدولة الرستميّة أن تقيم علاقات "مفهومة" مع الدولة الأمويّة في الأندلس. ونفترض أيضا أنّ انتشار العربيّة في الجزائر مكّن له النشاط التعليميّ المتجسّد في تلقين الفقه، وتفسير القرءان، وتأويل الحديث، وتحفيظ نصوصهما للناشئة أساساً، وتنشيط البعثات العلميّة إلى بلاد

المشرق. وكلّ ذلك له علاقة وُثْقى بدور المشرق العربيّ في نشر اللّغة العربيّة بالجزائر.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّه لا ينبغي أن يُنْظَرَ إلى هذا الدّور نظرةً مباشرةً فيقعَ الحديثُ عن الكتّاب والأدباء والمعلّمين المشارقة الذين ذهبوا إلى الجزائر لتعليم اللغة العربيّة في عهد الاستقلال (أي ابتداءً من سنة 1962)؛ فلو انطلقنا من هذه الرّؤية لخشِينا أنّنا نغمِط حقّ المشارقة في الاضطلاع بهذا الدّور، لأنّنا، حينئذ، لا نأتي إلاّ على ذكْر أَحَدِ وجهَي هذا الدور، دون ذكْر الوجه الآخر الذي قد يكون أعمق وأخصب. من أجل ذلك ارتأينا أن نعود بجوهر هذه المسألة إلى أصلها الأوّل لكي نحاول الإلمام، ولو بإيجاز شديد، ببعض أطرافها.

كيف وقع تعريب الجزائريّين في العهود الأولى من اعتناق الإسلام؟

لعلّ من حقّ منهج التفكير العلميّ علينا أن نثير طائفةً من الأسئلة عن هذه القضيّة مثل: متى عرفت الجزائر أوّل حركةٍ لتعلّم اللّغة العربيّة ثمّ استعمالها في حياتها الثقافيّة، ثم في حياتها اليوميّة والعامةّ معا، والحال أنّ سكّانها الأصليّين هم أمازيغيّون؟ وهل صاحَبَ نشْرُ اللّغة العربيّة نشراً منهجيّاً الفتحَ الإسلاميّ للجزائر الذي وقع الشروع فيه منذ عهد الخليفة الراشديّ الرابع؟ وكيف تمّ نشر اللّغة العربيّة على نحو واسع فإذا الجزائر قطرٌ يتحدّث العربيّة كأيّ قطر عربيّ آخر مشرقاً ومغرباً؟

ثمّ كيف استطاعت العربيّة أن تستأثرَ بألسنة الجزائريّين على حساب اللّغة الأصليّة -تامازيغتْ- ، دو "تبشير لغويّ"، ودون استعمال أيّ وسية ضغطٍ على النّاس لينسلخوا عن لغتهم الأصليّة ويتعلّموا لغة القرآن، ولغة العالم الأولى يومئذ، فإذا هي تزيلها من ألسنة الجزائريّين إلاّ ما كان من منطقة القبائل وما يجاورها؟ ثمّ لِمَ انقرضت الأمازيغيّة من ألسنة الجزائريّين الأصليّين في أرجاء مختلفة من القطر الجزائريّ وانحصرتْ في هذه المنطقة وحدها؟...(28)

لقد كانت أوّل مبادرة منهجيّة لاستعمال اللّغة العربيّة هي التي تمّت في أجهزة الدولة الرستميّة بمدينة تاهرت وما كان تابعاً لها من أقاليم، كما ذكرْنا ذلك منذ حين. وعلى الرغم من أنّ مؤسّس الدّولة عبد الرحمن بن رستم كان فارسيّاً في عِرقه، وأسس دولته في بيئة بربريّة، إلاّ أنّه كان عربيّاً في لسانه. ولقد رأى بذكائه ودهائه أنّ الفارسيّة لم تثبت في المشرق، فكيف يمكن أن تثبت في بلاد المغرب، وأنّ التاهرتيّين -وكلّ سكّان إفريقيا الشماليّة- أصبحوا يدينون بالإسلام الذي دستوره القرآن، فقرّر اللّغة العربيّة لغةً رسميّة في دواليب دولته الفتيّة. وتلك أكبر مبادرة لتعريب الجزائر في التاريخ المبكّر. (قامت الدولة الرستميّة في تاهرت فيما بين 146-296 للهجرة). ولقد ثبت أنّ بعض أمراء بني

---

28 ـ ينظر عبد الملك مرتاض، المسيرة التاريخيّة للتعريب في الجزائر، في مجلّة الثقافة، الجزائر، ع .4, 1971, ص.34 ـ50.

رستم، منهم أبو حاتم، كانوا يشجّعون العلماء والشعراء والمثقفين؛ فكانت "وفود الخطباء والشعراء"[29] لا تزال تقوم "بين يديه، تعدّد أياديَه، وتنشر مناقبه" [30]. وواضح أنّ اللّغة الأدبيّة التي كان الشعراء والخطباء والعلماء يخاطبون بها أبا حاتم الرستمي كانت هي العربيّة، مما يدلّ على بكور استعمال اللّغة العربيّة في الجزائر.

وأمّا المبادرة الكبرى الأخرى، الحقيقيّة، فلم تكن إلاّ باكتساح قبائل بني رياح، وبني سليم، وبني هلال المغربين الأدنى والأوسط (تونس والجزائر حالياً)، فتصاهروا مع الجزائريّين وتخالطوا معهم فوقعت المعايشة الشعبيّة، وهي السيرة التي أفضت إلى تعريب الجزائر تعريباً كاملاً فيما عدا المناطق الجبليّة ومنها منطقة القبائل حيث لم تصلها القبائل العربيّة المهاجرة، لإيثارها المقام في السهول من وجهة، والمناطق الصحراويّة أو الشبيهة بها من وجهة أخرى. وقد وقعت هذه الهجرة الكبرى من مصر إلى نحو إفريقيا الشماليّة في بداية القرن الخامس الهجري، كما ذكر ذلك ابن خلدون [31]على الرغم من أنّه ذكر هذه القبائل بسوء كثير، زاعماً أنّها كانت تخرّب العمران، وتقوّض البنيان، وأنّ بلاد المغرب كابدت الأمرَّيْنِ منها حيث دمّرتْ كلّ عمرانه

29 ـ الباروني، سليمان بن الشيخ عبد الله النفوسي، الأزهار الرياضيّة، في أئمّة وملوك الإباضيّة، القسم الثاني، المطبعة البارونيّة، القاهرة، 1324-1904, ص.186.

30 ـ م.س.

31 ـ ينظر عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص. 265, نشر مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967, ط.3.

بعد أن مضى عليها فيه ثلاثةُ قرون ونصف[32] (إلى عهد ابن خلدون). ونحن لا ندري ما منع ابنَ خلدون مِن أن ينظر إلى النتائج الحسنة التي تولّدتْ عن استيطان هذه القبائل أرض المغرب العربيّ؟ وهل كان يمكن أن يتعرّب المغاربة، والجزائريّون خصوصاً، بتلك السرعة لولا هذه القبائل العربيّة التي شاء القدر أن تكون هجرتها إلى إفريقيا الشماليّة بمثابة الفتح الثاني، والنهائيّ: الأوّل اقتصر على نشر الإسلام، والآخر امتدّ إلى نشر لغة القرآن؟...

أثر الرحلة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

لقد "ظلّت الرحلة في طلب العلم مظهراً مشرِّفا ونبيلاً في الثقافة العربيّة الإسلاميّة حيث ظلّ الناس يتبادلون الرحلة من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق خصوصا، للكُروع من ينابيع المعرفة، والسماع من أكابر العلماء والمفكّرين ومُجالساتهم، ومناقشاتهم: فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم، وقضايا المعرفة. ويبدو أنّ تقاليد التعليم على تلك العهود كانت تُؤْثِر السماع من أفواه العلماء على قراءة كتبهم؛ فكان المتعلّمون، أو قل: طُلاّب العلم على الأصحّ، يلتمسون مشافهة الرجال، والاِتّصال بهم شخصيّا. وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهَوْن...

32 ـ م.س.

ولعلّ أوّلَ رحلةٍ، احتفظ بها التاريخ، قام بها مثقّف جزائريّ إلى بلاد المشرق؛ تلك المتجسّدة في رحلة بكر بن حمّاد الزناتيّ الذي كان باكر إلى النهوض بهذه الرحلة إلى بغداد وهو في سنّ السابعةَ عشرَ ربيعاً. والحقّ أننا لا نعرف كبير شيء عن خلفيّات هذه الرحلة ودوافعها الحقيقيّة؛ فهل كانت ضرْباً من الهروب من مدينة تاهرت خشية بعض الاِضطهاد المذهبيّ؟ أم أنّ دوافعها كانت معرفيّة خالصة؟ وأيّاً كان الشأن، فإنّ المساءلة الأولى تظلّ مجرّد افتراض حتى تُثبتَها الوقائع التاريخيّة التي صمتت عن الكثير، ولم تفصح إلاّ عن القليل، ولا نحسبها ستنطق في يوم من الأيام فتخبرَنا بحقائق الأشياء التي بعُدَ عهدها بنا، وعهدُنا بها..."(33).

لقد كنّا ذكرنا في بعض هذه الكلمة، من قبل، أنّ بكر بن حمّاد التاهرتيّ(34) ذهب إلى بغداد وهناك تفتّقت قريحته لقول الشعر، كما روي الحديث عن علمائه فسمع "بالمشرق ابن مسدّد، وعمرو بن مرزوق،

33 ـ عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص. 38.

34 ـ تقع مدينة تاهرت إلى الجنوب الشرقيّ من مدينة وهران، وتبعد عنها أكثر من مائتي كلم. وهي أوّل مدينة إسلاميّة في بلاد المغرب، بعد الأندلس، تأسس فيها الدولة الرستميّة الإباضيّة التي تبنّت اللّغة العربيّة فجعلتها هي اللّغة الرسميّة للدولة. وقد نشأ أوّل شاعر عربيّ اللّسان في بلاد المغرب، وهو بكر بن حمّاد في أحضان هذه الدولة ذات الثقافة العربيّة، ولكنّه لم يصبح شاعراً مشهوراً إلاّ حين غادر إلى بغداد فمكث فيها عهدا طويلاً نقدّره بعشرات السنين دون أن نستطيع تحقيقه في غياب الوثائق التاريخيّة الدّقيقة... ولما احتل الفرنسيون الجزائر حرّفوا اسم هذه المدينة التاريخيّة ليتناسب مع منطوق لغتهم فقالوا: "تيَارَت". وهو الإطلاق الأجنبيّ الذي لا يزال اليوم متداوَلاً . (ينظر عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائريّ القديم، بحث في الجذور، دار هومه، الجزائر، 2000).

وبشر بن حجر"،(35) فكان "بتاهرت من حفّاظ الحديث، وثقات المحدّثين المأمونين"(36) حتى أصبح فيه حجّة، فكان الأندلسيون يرتحلون إليه بأعداد كثيرة حين كان مدرّساً بالقيروان لرواية الحديث عنه.(37) ثمّ نشطت رحلة المغاربة إلى المشرق لطلب العلم، ومن ذلك رحلات الجزائريّين لهذه الغاية نفسها، فلم يكن المثقف الجزائريّ يعدّ نفسه مثقّفاً مكتمل الثقافة إلاّ إذا قام بالرحلة إلى بلاد المشرق ليحجّ ويتّصل بالعلماء المشارقة. ولقد ظلّت هذه السيرة قائمةً إلى النّصف الأوّل من القرن العشرين حيث نجد أكبر الكتّاب الجزائريّين ومفكّريهم ينهضون بهذه الرحلة أمثال الشيخ الطّيّب العقبي الذي ذهب مع والده إلى الحجاز فجاور في المدينة المنوّرة زمناً طويلا وعلّم في حرَمها النبويّ. كما تولّى في مكّة انطلاقاً من سنة 1913 رئاسة تحرير جريدة "القِبْلة" خلفاً للمفكّر الإسلاميّ محبّ الدين الخطيب، كما تولّى في الوقت نفسه إدارة المطبعة الأميريّة،(38) قبل أن يعود بعد الحرب العالميّة الأولى، وهو مؤسس لمجموعة من الصحف منها "الإصلاح". وكان العقبيّ شاعراً وكاتباً ومصلحاً دينيّاً جميعاً. ولا يقال

35 ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، تاهرت، 2. 355.

36 ـ م.س.

37 ـ ينظر ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1948.

38 ـ ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر (من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر)، ص. 238-239, نشر مؤسسة نويهض الثقافيّة، بيروت، 1400-1980, ط.2.

إلاّ بعض ذلك في أحمد رضا حوحو الذي اغتاله الفرنسيّون عام 1956 -وهو أوّل قاصّ ومسرحيّ وروائيّ يكتب باللّغة العربيّة الفصحى أعماله الأدبيّة- فقد رحل إلى الحجاز وظلّ يحرّر في مجلّة "المنهل" قبل أن يعود ليؤسّس جريدة "الشُّعلة" بقسنطينة، ويصبح أميناً عامّا لمعهد ابن باديس الذي كان المؤسسة الوحيدة التي كانت تعلّم اللّغة العربيّة في أعلى مستوياتها (1947-1956 وهي السنة التي أغلقه فيها الفرنسيّون) في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسيّ.

وأمّا محمد البشير الإبراهيمي فقد انتقل إلى الحجاز فجاور في مكة والمدينة، وهنا تعرّفَ الأستاذَ عبد العزيز الرشيد، والعلاّمة أحمد بن الأمين الشنقيطي فكانوا يتناشدون الأشعار، ويتبارَون في استظهار نصوص المعلّقات أيّهم أكثر حفظاً لها..[39]. ثمّ علّم بدمشق حيث يزعم جميل صليبا، وهو أحد تلامذته بالمدرسة السلطانيّة بدمشق، أنّ محمّداً البشير الإبراهيمي هو الذي حبّب إليه ولصِحابه، تعلّم اللّغة العربيّة، وتذوُّق آدابها إذ يقول: "أُعْجِبنا بسَعة علمه، وقوّة ذاكرته، واستقامة منهجه؛ لأنّه كان يُمْلي علينا قصائد المتنبي والبحتري وأبي تمام على ظهر القلب من أوّلها إلى آخرها، ويقرّب معانيَها منّا بالتفسير المحكم، والشرح الدّقيق، والتحليل الأدبيّ الجميل حتّى ولّد في نفوسنا حبّ اللّغة العربيّة وآدابها"،[40] وذلك قبل أن يعود إلى الجزائر

39 ـ ينظر محمد البشير الإبراهيمي، في الفضيل الورتلاني، الكويت: المدينة الفاضلة، أو سويسرا العرب، ص. 239.

40 ـ جميل صليبا، في ذكرى الإبراهيمي، مقالة منشورة في مجلّة الثقافة، الجزائر، ع. 8-9, 1972, ص. 100.

ليرأس تحرير جريدة البصائر (1947-1956)، وهي أعلى الجرائد الجزائريّة لغةً، وأجملها أسلوباً، في الجزائر -على عهد الاستعمار الفرنسيّ- على الإطلاق؛ وليرأس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين خلَفاً لعبد الحميد ابن باديس الذي لم تكتمل شخصيّته العلميّة وتتبلور ملامح التفكير الإسلاميّ لديه، هو أيضاً، إلاّ بعد أن رحل إلى الحجّ، وجاور في المدينة، قبل أن يعُوجَ على الأزهر فيتّصل برجالاته، ومنهم الشيخ بخيت، وهو عائد في طريقه إلى الجزائر حيث أسس أشهر مجلّة فكريّة في مدينة قسنطينة على عهد الاستعمار الفرنسيّ، وهي مجلّة "الشهاب" (1925-1939).

والحقّ أنّ الرحلّة العلميّة التي ابتدأت بالشاعر بكر بن حمّاد التاهرتيّ ظلّت مستمرّةً فكان بعض العلماء يقومون بهذه الرحلة ليتشبّعوا بالعلم في حواضر الثقافة العربيّة الأصيلة، ولاسيما دمشق وبغداد، والمدينة، فكانوا يعودون لتعليم ما تلقّوه في مراكز الثقافة والعلم في الجزائر. غير أنّ بعضهم، إن لم نقل كثيراً منهم، كانوا يستعذبون الإقامة في بلاد المشرق فلا يعودون (ابن منظور الذي ظلّ بمصر حتّى توفّي فيها، وابن مُعْطٍ الزواويّ الذي لم يمنعه أصله البربريّ من أن يتفوّق في العربيّة والنحو فيصبح فيهما حجّة، فيكتب ألفيّة في النحو بزّتها، من بعد ألفيّة مغربيّ آخر هو ابن مالك... فقد استسعد الإقامة بدمشق حتّى توفي بها...). وما ذكرْناه هو مجرّد تمثيلٍ لأحوال كِثَارٍ.

إنّ الحديث عن دور المشارقة في نشر اللغة العربيّة، في الجزائر، لا يمكن البدء به، بكيفيّة فطيرة، من بعثات التعليم المشرقيّة التي وقعت في عهد الاستقلال، والتي سنتناولها لاحقاً، في هذا الحديث... إذ لو لم تكن هذه الصلات الثقافيّة قويّة منذ العهود الأولى للفتح الإسلاميّ لبلاد الجزائر، وذلك باستجلاب الكتب من بلاد المشرق قبل الشروع في التّأليف لَما انتشرت اللّغة العربيّة على النحو الذي اغتدى الجزائريّون في معظمُهم يتحدّثون اللّغة العربيّة حيث تعرّب السّكّان بمحض إرادتهم منذ القرون الأولى بعد الفتح. وناهيك أنّ الدّولة الرستميّة كانت تستجلب أمهات الكتب من بلاد المشرق حيث "كان الرستميّون يجتهدون في نقل كلّ ما يصدر من كتب ذات شأن في الشرق العربيّ؛ حتّى إنّ عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستميّ اشترى من البصرة في دفعة واحدة حِمْلَ أربعين بعيراً من الكتب[41]؛ وهي الأحمال التي نقدّرها بالوزن العصري بما لا يقلّ عن عشرة أطنان من الكتب ابتِيعت من البصرة في مجرّد دفعة واحدة...

ولقد أُودعت هذه الكتب وسَواؤُها، قبلها أو بعدها، في أوّل مكتبة عموميّة أُسّست في تاهرت؛ وهي المكتبة التي أُطلق عليها: "المعصومة".[42]

41 ـ ينظر مبارك بن محمد الهلاليّ الميليّ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 2. 68, نشر مكتبة النهضة، الجزائر، 1963.

42 ـ عبد الملك مرتاض، م.م.س.، ص. 45.

واستخلاصاً من بعض ما تقدّم يتبيّن لنا أنّ دور المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر ابتدأ منذ القرن الأوّل للهجرة وظلّ مستمرّاً تحت أشكال مختلفة، وبوسائل متنوّعة: إمّا بالكتب التي كانت تستجلب من المشرق، وإمّا بالبعثات التي كانت تذهب إلى المشرق لتتعلّم، فتعود إلى الجزائر لنشر العربيّة ومن خلالها المعرفة والثقافة، وإمّا بما تمّ من استقرار بعض أوائل الفاتحين العرب على الرغم من ضآلة المعلومات التي تُثبت ذلك...

إسهام المدرّسين المشارقة في نشر اللّغة العربيّة في الجزائر

لقد سبق لنا التّأسيس لهذه المسألة من خلال عرض تاريخيّ وجيز لمسيرة انتشار اللّغة العربيّة في الجزائر فلم يمضِ القرن الثاني للهجرة حتّى أصبح في الجزائر شعراء باللّغة العربيّة. ولم يمض على ذلك إلاّ قرون حتّى أصبح الجزائريّون ينظّرون للنّحو العربيّ من خلال نحويّهم الكبير ابن معطٍ، وبعده أحمد بن عليّ ابن منصور البجائيّ... وجاء العصر الحديث فكان الأمير عبد القادر يقاوم المحتلين الفرنسيين بالسيف والشعر، حتّى شبّهه بعض الدارسين الجزائر بمحمود البارودي. وجاء القرن العشرين فتوسعت الرحلة العلميّة إلى المشرق وتعددت، كما أسهم توزيع الكتب والمجلاّت التي كانت تصدر

بالمشرق في ازدياد انتشار العربيّة، بالإضافة إلى بعض الرّحلات الثقافيّة التي قام بها المشارقة منذ بداية القرن العشرين إلى الجزائر، ومن أهمّها إطلاقاً زيارة الشاعر أحمد شوقي التي كانت سنة **1903** فيما نحسب، ولكنّه لم يجشّم نفسه تكلّف الاتّصال بالمثقفين الجزائريّين "ولم يتصل هؤلاء به أيضاً، فتلاوم الطّرَفان بعد فوات الأوان"[43], فاتهم هو الجزائريّين بأنهم كانوا يجهلون اللغة العربيّة، من حيث اتهمه هم بأنّه تسرّع في حكمه فلم يكن فيه منصفاً؛ إذ استدلّ على الشعب الجزائريّ بمسّاحي الأحذية منه![44] على عكس الشيخ محمد عبده الذي زار الجزائر عام1905[45] (أي في السنة التي تُوفي فيها)، وألقى دروساً

43 ـ عبد الملك مرتاض، الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق، ص.74.

44 ـ م.س.

45 ـ ينظر عمار طالبي، آثار ابن باديس، 1. 25 وما بعدها. ومن الوفود والشخصيات التي وفدت على الجزائر، وهي ترزح تحت نيّر الاستعمار الفرنسي، في النصف الأول من القرن العشرين بعد هاتين الشخصيّتين: الممثلة المصرية فاطمة رشدي سنة 1932, وقد احتفل بها الأدباء الجزائريون وأقاموا لها حفل استقبال فاخر بنادي الترقّي بمدينة الجزائر؛ وسامي شوا، وهو عازف على الكمان، ورئيس فرقة موسيقيّة مصريّة، زار الجزائر سنة 1932 أيضاً. وكان سامي شوا أديباً إلى جانب كونه موسيقاراً، كما يفهم ذلك من نصوص إعلاميّة جزائريّة... ثمّ يوسف وهبي –سنة 1947, 1950, 1951, 1952– الذي بايع البشير الإبراهيمي، في إحداها، على أنّه ملك العربيّة. ووضع له أهل تلمسان تمثالاً من الحلوى، ثمّ فريد الأطرش –سنة 1951– الذي أسف "أن لا يعلم الشرق عن هذه النهضة المباركة في الشمال الإفريقيّ مثل "ما يعرفه الجزائريون عن هذا الشرق... ومن ذلك زيارة فرقة جورج أبيض –1921– التي كانت تتألّف من ثلاثة وعشرين ممثلاً منهم حسين رياض، ومحمد عطيّة، وعباس فارس. ومن الوفود المشرقيّة الأخرى التي وفدت على الجزائر وفد إعلامي مصري –1950– يتكوّن من أكثر من عشرة شخصيات من بينهم عزيز مرزه رئيس تحرير جريدة الأهرام، والدكتور عبد الحميد يونس من كلية الآداب بجامعة القاهرة، وأنطون نجيب رئيس تحرير جريدة المقطّم، وحبيب جاماتي ممثلاً لدار الهلال... نقول ذلك حتّى تكتمل صورة التبادل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربيّ. . ينظر عبد الملك مرتاض، م.س.ص.72– 99.

ببعض مساجدها، كما أقام علاقات طيّبة مع بعض علمائها منهم الشيخ عبد الحليم بن سماية، وراسله من القاهرة.

ولقد أفضى تلقّي المنشورات المشرقيّة من مجلات وكتب، بانتظام، إلى تأسيس صحف عربيّة أنافت على الخمسين في النصف الأوّل من القرن العشرين. كما أثارت شدّة عناية الجزائريّين بالكتب المشرقيّة غيرة بعض المثقفين الجزائريّين فكتب فرحات الدراجي مقالة بعنوان: "كلمة عتاب إلى إخواننا الشرقيّين"[46] وقد كتب ذلك حين لاحظ أنّ بعض المشارقة يخطئون في كتابة أكبر المدن الجزائريّة فيطلقون على وهران "أُورَان"، وعلى قسنطينة "قُسنطين"! في حين يذهب أبو يعلى الزواوي وهو أحد الذين ارتحلوا إلى المشرق العربيّ وأقاموا فيه طويلاً، يذهب إلى أبعد من ذلك حين يكتب مقالة حامية بعنوان: "اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا"![47]

ولعلّ كلّ هذه الكتابات وهذه العلاقات تبرهن على أنّ المشرق العربيّ كان حاضراً في أذهان الجزائريّين، وأنّ ذلك لا يعود إلى تأثير هذا المشرق فيهم؛ فكان طبيعيّاً حين نالت الجزائر استقلالها في صيف سنة 1962 أن تستعين بالإخوة العرب في المشرق في نشر اللّغة العربيّة وتدريسها للناشئة الجزائريين، فلم يقصّر الإخوة المشارقة في ذلك. فقد توافدت على المدارس الابتدائيّة والثانويّة الجزائريّة ـ ثمّ الجامعة

46 ـ جريدة البصائر، ع.89 في 3. 12. 1937, ص. 2.

47 ـ ينظر أبو يعلى الزواوي، م.م.س.

فيما بعد ذلك ـ لنشر اللّغة العربيّة منذ سنة 1962 أعداد غفيرةٌ من المشارقة: من السعوديّة، والكويت، وسوريا، ولبنان، والأردن، ومصر، ومن بلاد المغرب أيضاً (المغرب، وتونس).

ولا نبرح نلتقي مع المدرّسين العرب الذين جاءوا إلى الجزائر بدوافع قوميّة نبيلة، هنا وهناك فنعطّر باللّقاء الذكرى.

ولا يسعنا إلاّ أن ننوّه بالكويت الشقيق الذي كان رصد هبات لأداء مرتبات موظّفيه من مدرّسين وأطباء وغيرهم للفترات التي كانوا يقيمونها بالجزائر للنهوض بوطنهم الثاني بعد أن تعرّض لأبشع احتلال في التاريخ. وليس ذلك فحسب، بل إنّ الكويت كان من أسبق البلدان العربيّة التي خصّصتْ منحاً للطّلاب الجزائريّين كما ذكر ذلك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ "فقد قرّرت رئاسة المعارف بالكويت قبول عشرات من تلامذة جمعيّة العلماء الجزائريّين؛[48] على أن تكون أولى

48 ـ كانت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين التي تأسست في أواخر مايو من عام 1931 بنادي التّرقّي بمدينة الجزائر هي التي تتولّى تدريس اللّغة العربيّة للتلاميذ الجزائريّين في مدارس خاصّة أنشأتها في كلّ المدن الجزائريّة بفضل هبات المواطنين. ثمّ أسست معهد ابن باديس للتعليم الثانويّ بمدينة قسنطينة سنة 1947. ثمّ أفضى بها الطّموح، في منتصف القرن العشرين، إلى أن تبعث البعوث من الطّلاّب الجزائريّين إلى بعض الأقطار العربيّة الشّقيقة. وإلى ذلك يشير الإبراهيمي حين قبل الكويت منْح الطلبة الجزائريّين منحاً ليدرسوا في مدارسه الثانويّة، ثم في الجامعة... ويعني ذلك أنّ الكويت بدأ يكوّن الطّلاب الجزائريّين الذين نشروا اللّغة العربيّة في الجزائر ابتداءً من سنة 1953, أي بسنة واحدة قبل اندلاع ثورة التحرير في نوفمبر 1954.

الدّفعات في هذه السنة (هي سنة 1953) من خمسة عشر تلميذاً، ووصلني خطاب رسميّ بذلك!!.[49] وقد تضاعف هذا العدد في السنوات اللاحقة بحيث أصبح الكويت أحد مقاصد الطّلاّب الجزائريّين لينهلوا العلم من مؤسساته التعليميّة بمنح كويتيّة سخيّة. وقد تخرّج بعض الشعراء باللّغة العربيّة من أولئك الطّلاّب منهم الشاعر الكبير محمد الصالح باوية...

وبفضل بعض هذه الجهود الكويتيّة ومعها جهود عربيّة ننوّه بها تارة أخرى، بهذه المناسبة، دون أيّ عقدة، حافظت الجزائر على عروبتها، وأصبح اليوم قريب من ثمانية ملايين من تلامذتها يدرُسون، في المدارس الجزائريّة، باللّغة العربيّة كزملائهم في العالم العربيّ مشرقاً ومغرباً. بل لقد أصبح عدد شعرائها وكتّابها الشباب، باللّغة العربيّة، لا يأتي اليوم عليهم الحصر! بعد أن كان النّاس يعتقدون أنّ الكتّاب في الجزائر لم يكونوا إلاّ باللّغة الفرنسيّة التي على الرغم من جهود بعض الْمُسنّين الذين لا يزالون يتعلّقون بالثقافة الفرنسيّة في الجزائر، فإنّ هذه اللّغة الأجنبيّة بدأت مكانتها تتقلص، ولم يعد الشباب يُتْقنونها - ما عدا أبناء الذوات- كما كانوا من ذي قبل.

وإذا كانت الجامعات الجزائريّة انطلقت في تعليم موادّها أوّل مرّة بجيش عرمرم من الأساتذة الجامعيّين العرب من معظّم الأقطار التي

49ـ محمد البشير الإبراهيمي، م.م.س.50.

ذكرناها آنفاً، فإنّه لم يبقَ اليومَ منهم في الجزائر إلاّ بعض العراقيّين والفلسطينيين لأسباب إنسانيّة أكثر منها علميّة؛ وذلك لأنّ الطّلبة الذين تعلّموا على الأساتذة المشارقة في بداية أمر الجامعة الجزائريّة، على عهد الاستقلال، أصبحوا هم اليوم أساتذةَ جامعاتٍ. بل وجدنا كثيراً منهم يفدون اليوم على أقطار عربيّة مثل السعوديّة والأردن، وعُمان، والبحرين، وقطر... لتدريس طلاّبها اللّغة العربيّة! وتلك من أعظم ثمرات التعاون الثقافيّ بين المشرق والجزائر في نشر اللّغة العربيّة، والتضافر على تعليمها...